الفصل

10

الشجاعة في روضة الأطفال

مواجهة ذئابنا

كيلي دادونا، لورا موريس وسينثيا باريس

Kelly D'Addona، Laura Morris and Cynthia Paris

إن تدريس أطفال رياض الأطفال عمل ليس للجبناء، ذلك أنه يتطلب شجاعة حتى من أكثر المعلمين ذوي الخبرة والبراعة، الذين يجعلون الأعمال المعقدة سهلة وبسيطة. تصف المربية في ميدان الطفولة المبكرة ميمي برودسكي تشنفلد Mimi Brodsky Chenfeld, 1993 التحديات التي تواجهنا وتستنزف طاقتنا وتجعلنا نشك بفاعليتنا وحتى في اختيارنا لعملنا، وتشير إلى الأفراد الذين يتحدوننا كذئاب، وهذه ذئاب تصل بصورة زملاء وعائلات ومديرين وأعضاء مجتمع ممن يسألون: لماذا ندخل المكعبات أو اللعب المثير في مناهج رياض الأطفال؟ أو لماذا نقدم للأطفال خيارات أو نخصص وقتًا تدريسيًّا قيمًا للعب خارج غرفة الصف أو لمناقشات مفتوحة وحل المشكلات.

في القصص والأحاديث الآتية نستعيد بضعًا من مواجهاتنا، إضافة إلى الرؤى التي اكتسبناها والمتعلقة بالشجاعة ومواجهة ذئابنا. هنا نتكلم بثلاثة أصوات: كيلي، وهي معلّمة جديدة، ولورا الطالبة الجامعية والمتعاونة مع كيلي، وسنثيا وهي أستاذة كيلي ومديرة المدرسية الريادية التي تُدرّس لورا فيها. كانت الذئاب التي واجهناها تتمتع بسلطة هائلة، تمكنها من فرض صورة معينة لرياض الأطفال، وفي أفضل الظروف كان من يمتلكون سلطة وضع القوانين والقواعد ضليعين في الطريقة التقدمية في التعليم وآخر البحوث حول النمو والتعلم المبكر، لكننا وجدنا أن هذا لم يكن واقع الحال.

تبدأ مواجهة كيلي مع مشرفتها في بداية معهد تدريب صيفي، فلمشرفتها سلطة لتحديد أول مهمة تدريسية لكيلي أو إنهائها، وعندها فهم للأطفال الصغار والمنهاج والتدريس يختلف اختلافًا كبيرًا عما تعلمته كيلي في تدريبها في أثناء دراستها الجامعية الأولى.

مواجهة ذئب

كيلي: «سارت الأمور عكس كل ما تعلمته»

بعد ثلاثة أسابيع من تخرجي بشهادة جامعية في تربية الطفولة المبكرة، انطلقت بحماس لألتحق بمعهد مؤسسة (درّس من أجل أمريكا) Teach for America's Summer Institute الصيفي للمُعلِّمين الجدد. لم أدرك الأثر الذي ستتركه هذه التجربة عليّ وعلى المعتقدات التي عملت بجد لاكتسابها كطالبة في المرحلة الأولى من الجامعة.

كانت مهمتي الأولى تصميم نشاط مركز وتنفيذه لتحقيق الهدف الآتي:

- سيكون الأطفال قادرين على تحديد خمسة أشكال للطائرة (الدائري والمربع والمثلث والقلب والنجمة) ووصفها.

كان الهدف من النشاط أيضًا تقديم معطيات تقييم فيما يتعلق بفهم الأطفال للهدف، فكرت وقلت (هذا رائع)، فقد فهمت أن المراكز تخصص وقتًا للاستكشاف والتعلم الموجه لصالح الطفل عن طريق تفاعل نوعيّ بين المدرس والطالب، يسمح للمدرس رفع مستوى فهم الطلاب. كنت مندهشة لعلمي أن باستطاعتي الاعتماد على خبراتي السابقة في تعليمي في المرحلة الجامعية الأولى.

أعطيت نسخة من الخطة الدرسية والمعايير المتعلقة بالمهارة التي كان علي أن أدرسها، خططت لإعطاء الأطفال كتلًا، وأطلب إليهم أن يمثلوا بها الأشياء التي يحبونها، سأصوغ التفكير بصوت عالٍ وفقًا لنموذج الأشكال، وسأحدد كل شكل، وأصف ميزاته، وأستخدم المكعبات لتمثيل شيء. حين كان الأطفال يعملون كنت أقيّم فهمهم عن طريق التحدث إليهم منفردين، وأسأل عما كانوا يصنعونه، وما الذي كانوا يلاحظونه بشأن الشكل وصفاته. لقد كنت مستعدة للانطلاق.

قلت دهشتي حين قالت لي مشرفتي بفظاظة بأن النشاط الذي قمت به لم يكن مناسبًا، وذكرت بأنه من المحتمل أن يركز الأطفال -أكثر من اللازم- على البناء لتحديد الأشياء ووصفها، وعبرت عن قلقها بشأن حفاظي على ضبط الصف، وما يمكن أن يفعله الأطفال إذا

لم أضع حدًّا لعدد المكعبات التي في وسعهم استعمالها. لقد وُجهتُ لأن أقود (مركزًا يستند إلى الهدف)، يحدد الطلاب عن طريقه -وببساطة- الأشكال الخمسة ويصفونها كما يجب، وهذا ما جعل قلبي يهبط، أن أضع مجموعة من بطاقات الفهرس تحمل صورًا للأشكال وأن أجعل الأطفال يمتحنون بعضهم بعضًا.

لم أعرف كيف أرد، هذا لم يكن مركزًا، و لم تكن هناك فرص للاستكشاف إذا كان الأطفال يمتحنون بعضهم بعضًا في أسماء الشكل، هذا إذا ما تناسينا دمج اهتمامات الأطفال ومعرفتهم وتجاربهم السابقة، لقد كان ذلك عكس كل شيء تعلمته عن كيفية تعلم الأطفال. حاولت أن أنقل هذا الأمر، فقيل لي بأن عليّ فقط أن أنفذ النشاط المقترح.

لورا: مراقبة السحر

يبدو أن الكثير من الكبار يخشون من الأطفال، ويعتقدون بأن تركهم يستعملون أدواتهم الخاصة بهم يحتم خروجهم عن السيطرة، ويهدر الوقت الثمين للتعلم. يبدو أن الهدف الرئيس لبعض المعلمين هو تعليم الأطفال فعل ما يطلب إليهم أن يفعلوه، وهنا لا تحترم قدرات الأطفال ورغباتهم الفطرية في تعلم عالمهم الخاص بهم وفهمه. إن الأمر يبدو وكأن مشرفتك تعتقد أن أهدافها (التي تتمثل في تحديد الأطفال للأشكال الخمسة) وأهداف الأطفال (التي تتمثل في فهم عمل الأشكال الخمسة) متضاربة مع بعضها بعضًا، ويبدو أيضًا -بالنسبة إلى مشرفتك- أن جعل الأطفال يُسمّون الأشكال أهم من مساعدتهم على معرفة فائدة هذا المعطى حين يتعلمون العلاقات بين الأشكال، ويمثلون شيئًا مهمًّا بالنسبة إليهم.

أحب مراقبة السحر الذي ينشأ حين يتناغم الكبار مع ما يقوله الأطفال وما يفعلوه، وحين يتساءلون معهم ويتشاركون في اكتشافاتهم، بمعنى آخر حين يؤمن الكبار بقدرات الأطفال. اتضح لي من خبرتي أن الأطفال تواقون إلى المشاركة في نشاط حالما يفهمون أن هذا النشاط يرتبط بأسئلتهم حول العالم، ومن ناحية أخرى، حين تقدَّم الأنشطة الصفية سلسلة من المهمات غير المترابطة؛ لتكمل لأن المدرس يقول ذلك، فإن الحفاظ على اهتمام الأطفال ومشاركتهم يصبح أمرًا مثيرًا للتحدي.

أثير موضوع الصلة باهتمامات الأطفال في أثناء اجتماع لمرحلة دراسية عقد مؤخرًا. ناقش المدرسون أسباب اختيار الأنشطة. ما أنواع الأنشطة الناجحة؟ هل هي في إبقاء الأطفال محفزين ويحققون أهدافنا؟ أي الأنشطة أقل نجاحًا في تلبية متطلبات هذه المعايير؟ اتفقنا على أن أفضل الأنشطة هي التي تبنى على اهتمامات الأطفال، مع نقل أهداف هذه الأنشطة إلى الأطفال بوضوح. ولتطبيق هذا الاستنتاج على تجربة كيلي عليّ أن أسأل: «أي هدف يمكن لأطفال من أعمار الرابعة والخامسة أن يحققوه في امتحان بعضهم بعضًا في أسماء الشكل؟».

سينثيا: بناء الأعشاش

كم هو محبط ومؤلم فكريًّا وعاطفيًّا أن يتوقع منك التدريس بطرق تنتهك القناعات المتجذرة عما هو الأفضل للأطفال. إن التمسك بتلك القناعات وتبيانها بوضوح لشخص لا يبدو أنه يتشارك بها أو يرغب في تعلمها أمر صعب. في فصل الربيع من سنتي الأولى في التدريس بحث أطفال الروضة عندي في كيفية بناء الطيور لأعشاشها، وبعد أن تعلموا من بحثهم أن الطيور يمكن أن تدمج الطين والعشب في بناء أعشاشها، طفنا المنطقة بالقرب من الجدول الموجود خلف مدرستنا لنجمع هاتين المادتين ومواد أخرى. لقد قضينا صباحًا يعج بالنشاط ونحن نبني الأعشاش في غرفتنا الصفية، وبالكاد كان لدينا وقت للسير عبر ممر القاعة من جانب المراحل الأولى للوصول إلى درس الجمباز في الوقت المحدد، وأنا متأكدة أنه ما يزال هناك طين تحت أظافري، وعشب عالق في شعري.

حين استدعيت إلى غرفة رئيسة فريق المرحلة الأولى بعد تركي لأطفالي في منطقة الجمباز. قالت لي رئيسة الفريق: «اجلسي، واستمعي»، قالت لي بأنني فشلت في تهيئة أطفالي في الروضة للمرحلة الأولى، وأن عليّ التوقف عن استعمال (منهجية المشروع تلك)، لأنها كانت تعلم أنها لن تنجح. قالت لي أيضًا بأن عليّ أن أتوقف عن السماح لطلابي أن يقرؤوا تلك الكتب غير الخيالية، لأنهم لم يتعلموا بعد القراءة (بالطريقة الصحيحة) والتي بالتأكيد ستجعل عملها أكثر صعوبة العام القادم حين يتعيَّن عليها أن تكسر (عادات القراءة السيئة)، وتابعت بأن عليّ أن أركز حصريًّا على منهاج روضة الأطفال: ثمانية أحرف ساكنة، وحرفان صوتيان قصيران، والعد إلى العدد عشرين، وتعلم الجلوس بهدوء على الكراسي.

لقد صعقت، لم تكن لدي فكرة كيف أشرح أو أدافع عن منهاجي الفني بالتعلم والمركز على الطفل. ونظرًا لأنني أعرف ماذا أفعل أكثر من ذلك فقد عملت سرًّا. هنا انهمكت في مقاومة هادئة. أغلقت باب غرفة الصف ولم أعرض أي شيء خارج الغرفة يمكن أن يكشف أن التعلم يحدث في الداخل، ومنذ تلك اللحظة وما تلاها كنت آخذ الأطفال بهدوء من الباب الخلفي للمدرسة، لمتابعة استكشافنا للطبيعة، واثقة من أن كل طفل -تقريبًا- كان قد أوفى توقعات الحد الأدنى هذه بالنسبة إلى أطفال الروضة وتخطاها.

هذا اليوم العمل السري غير ممكن، فتعليم الطفولة المبكرة هو الآن في دائرة الضوء الوطنية. لقد كلف المديرون بمسؤولية التأكد من امتثال المعلمين للمناهج المفروضة بتعليمات رسمية، كما كلف المدرسون بالتأكد من أن أطفال الروضة ينجحون حسب المستويات المستهدفة بناءً على التقييمات المطلوبة. ليس من الغريب أن نجد الكثير من المعلمين لا يرفعون أصواتهم أو يقاوموا، بل أنهم بدلًا من ذلك يكتفون بالاستسلام.

كطالبة في المرحلة الجامعية الأولى تدربت كيلي على التعبير عن الأسباب التي تكمن وراء قراراتها في التخطيط. لقد تشاركت هي وأساتذتها بالمفردات وطرق التدريس المستندة إلى الالتزام بقيمة الطفولة، وتجارب الأطفال المتنوعة واهتماماتهم ومشاعرهم ومواهبهم. ولكن -لسوء الحظ- قد تتحدث الذئاب بلغة تعكس قيمًا وأهدافًا مختلفة، كما يكشف ذلك تركيزهم على المعايير والأهداف والمنهاج المكتوب والمحاسبة. تتحدانا ميمي برودسكي تشنفلد Mimi Brodsky Chenfeld, 1993 التي تريد أن تصبح ثنائية اللغة في هذه المسألة. أي تعلم لغة ذئابنا كي تستطيع نقل قناعاتنا وأهدافنا بطرق يستطيع الذئاب فهمها.

مشاعر كيلي

كيلي: ربما كنت مخطئة

لقد شعرت بالهزيمة، شعرت أن مشرفتي تسيطر بصورة كاملة على تقييمي في أثناء مدة تدريبي الصيفي، وأنها تمتلك السلطة على العمل الذي نظمته لفصل الخريف. لقد كان الأسبوع الأول واليوم الأول والمهمة الأولى التي أكلف بها لإثبات كفاءتي، لم أعتقد أن لدي خيارًا بشأن تغيير خطتي.

بـدأت أشـك في نفسـي وقلـت: «ربما كنت على غيـر الصواب، وربما لـن يتعلم الأطفال أسـماء الأشـكال ولن ويكونـوا قادرين على وصفها عن طريق نشـاط غير محـدود. حينها لن يتعلم الأطفال ما كان مفترضًا أن يتعلموه وسأوصف بأنني غير فعالة».

لورا: الأطفال كلهم يرغبون في التعلم

أتسـاءل لماذا نسـرع إلى التشـكيك في أفكارنا والتخلي عنها حين نقف أمام التحدي؟ لمـاذا نسـرع فـي الاستسـلام؟ ربمـا نحـن نعتقـد -أو نخشـى- أن المديرين ورؤسـاء الفرق ومدربي المنهاج هم حقًّا الأفضل معرفة، وربما نخشى أن تجارب التعلم المستند إلى اللعب لا بد أن يقايض (بالمهارة والتدريب)، لضمان تعلم الأطفال جميعهم. هذا ما تنقله كيلي من شـكوك لديها، ربما لن يتعلم الأطفال، وربما كنت مخطئة، لقد تصارعت مع أفكار مشـابهة. فـي بعض الحـالات يمكن أن يكون هذا الأمر صحيحًا، ولكن السـؤال: هـل هو صحيح دائمًا؟ كيـف لنـا أن نعـرف؟ ما العوامـل الأخرى التـي دفعت كيلي ومشـرفتها للتوصل إلـى مثل هذه الاستنتاجات المختلفة وتشعران بأنهما على حق في ذلك؟

إن اعتقادنا المشترك أن الأطفال جميعهم يريدون أن يتعلموا وأنهم قادرون على التعلم قد يكون أكبر عامل يؤثر في خياراتنا جميعنا. هذا هو سبب نجاح طريقة تدريسنا، نحن لدينا العقلية التي تؤمن بأن الأطفال أقوياء، وأكفاء، ومبدعون، ومستفسـرون، ولا نقلق من فقدان السيطرة عليهم، نحن لا نشعر بأن علينا إجبار الأطفال على التعلم أو الطاعة والإذعان، كما نعلـم أن الأطفـال يريدون أن يفهموا عالمهم، وأن يكونـوا جزءًا منه، ونحن نبني تعليمنا على وجهة نظرهم تلك. إن مشرفة كيلي تنظر للأطفال بصورة مختلفة وذلك بناءً على مخاوفها.

التفكير بالمواجهة

كيلي: لقد كنت متدربة

أُحبطت كثيرًا حين علمت أن مشـرفتي خضعت للتدريب مدة سـتة أسـابيع تنحصر في موضوع (تطور الطفل)، وأن خبرتها سـنتان في التدريس. كيف لفرد بهذه الخبرة والخلفية

المعرفية القليلة جدًّا أن يقول لي بأنني كنت على غير الصواب؟ ولكنني كنت المتدربة وكانت هي المشرفة، ومعها الكثير من السلطة.

لورا: هل كانت (قصتي) القصة الوحيدة؟

أتفهم مشاعر كيلي، حين يحاول أحد تحدي أفكاري وممارساتي أجد نفسي -غالبًا- أشيطن الذئب الذي أحاول التفاوض معه، كنت أقول: «إنها لا تفهم التعلم المرتكز على الطفل»، «إنها تهتم فقط بالدرجات»، «إنها تخشى هزّ القارب»، «لقد أصبحت الضحية المحبطة»، «ليس لدي سلطة»، «ما الذي أستطيع فعله لأمارس السلطة في هذا الموقف؟» بعد أن رفضت أن أبقى بلا حول ولا قوة لي دفعت الأمور إلى الخلف.

حين كنت مديرة رفضت المقاطعة طلبي لتقديم الدعم السلوكي للطفل، لقد بدا لي أن هذا الطلب كان طلبًا مناسبًا، وبحكم أنني كنت مناصرة لهذا الطفل فقد شككت بمنطق المقاطعة، وقدمت أدلة إضافية، ودفعت مرارًا وتكرارًا -وأحيانًا لم يكن ذلك بطريقة مؤدبة- تجاه ما كنت أشعر بأن الطفل يحتاجه. في نهاية المطاف لم نحصل على الدعم، وكانت مشرفتي غير مسرورة مني، كما توترت علاقاتي مع أشخاص مهمين آخرين.

في أثناء الأحاديث الصعبة حين يكون الأمر على أقصى درجة من الأهمية نكون دائمًا في أسوأ أداء لنا، وهذا ما كان ينطبق عليّ بالتأكيد. كانت أفعالي تنبع من التزام قوي بهذا الطفل وعائلته، ومن اعتقادي بأنني طلبت خدمات منطقية وضرورية. لكن ما لم آخذه بعين الحسبان في ذلك الوقت هو إن كانت (قصتي)؛ أي القصة التي كنت أرويها لنفسي عن (صحة) اهتماماتي وأفعالي، هي القصة الوحيدة أم لا، أو فيما إذا كانت القصة الأكثر دقة. إذا كانت كذلك فكيف لي أن أعرف ذلك؟ إنني اعتقد الآن أن إيماني القوي (بصحة) وجهة نظري أعماني عن رؤية الإمكانات والحلول الوسط الأخرى.

ما الذي يدفع ذئابنا إلى اتخاذ قرارات تبدو لنا غير صحيحة؟ ما دوافعهم؟ هل هم حقًّا مهتمون بدرجات الاختبار أكثر من الأطفال؟ هل تمتلك ذئابنا حقًّا السلطة التي نعتقد أنهم يمتلكونها، أم تمارس جهة ما أو شخص ما أكبر منهم الضغط عليهم للتصرف هكذا؟

وبكلمات أخرى، من المسؤول هنا؟ وكيف لنا أن نكتشف ذلك؟ قبل أن نخرج باستنتاجات ونصدر الأحكام، لا بد لنا من الحصول على مزيد من المعطيات، وأن نعمق فهمنا لوجهة نظر الذئب. كيف لنا أن نضمن بأننا لا ندرس قصتنا فحسب؛ بل قصة الذئب أيضًا؟ ما الذي يستلزمه هذا الأمر؟ ما هي المهارات والميول التي نحتاجها؟ ربما الخطوة الأولى للحصول على وجهة النظر هذه هو الانخراط بعقل مفتوح في حوار ذي معنى حول الموضوعات ذات الخطورة العالية مع أناس يفكرون بصورة مختلفة.

الدروس المستقاة

كيلي: تعقيدات عالم التدريس

أنكمش خوفًا وأنا أنظر إلى أشرطة الفيديو التي تظهرني وأنا أدرّس في ذلك الصيف. أتذكر كم كنت خائفة من أن تنظر إليّ مشرفتي وتنتقيني من بين الجميع. والأسوأ من ذلك أنني لم أتوقع مساعدتها في أن أكون المعلمة التي أريد. كنت قد عملت مع معلّمين خاصين لامعين حتى هذه اللحظة وهم أساتذة في ميدان الطفولة المبكرة، لقد كان من المؤلم أن يتعيَّن عليّ الإصغاء لما كانت مشرفتي تعتقد بأن عملي جيد أو غير جيد في التدريس.

بالرغم من سهولة تذكر الجانب غير الجيد إلا أن بعض النواحي الجيدة أتت من هذا الموقف، فقد جعلني هذا الموقف متواضعة، وغيرت وجهة نظري عن الطبقات العميقة للتعلم، كما علمني هذا الموقف أن عالم التدريس -وليس العمل ذاته- عالم معقد وأن كثيرًا من العوامل تؤثر في المعلمين كل يوم.

سنثيا: كان يمكن أن أنجز الأمور بطريقة مختلفة

كم كانت كيلي حكيمة حين أدركت في مرحلة مبكرة من مهنتها أن التأثيرات من خارج غرفة الصف تصوغ عملنا داخل هذه الغرفة، حين بدأت مهنتي في التدريس خامرني الوهم بأنني سأكون ملكة المملكة الصغيرة الموجودة داخل الجدران الأربعة لغرفة صفي، لم أكن أفهم كيف كان الكلام يتسرب من هذه الجدران الأربعة، وكم هي عديدة تلك القوى القوية والمعقدة خارج هذه الجدران التي يمكنها أن تؤثر في قدراتي الصفية من يوم إلى يوم.

ولكن، وبعد سنوات عديدة في مهنتي التدريسية غيّر زوج من العَضَلْ (حيوان من فصيلة الفئران على قدر الجرذ يتكاثر بسرعة) وبصورة علنية كل سلوكي. طالبت عائلتان بإخراج الحيوان من غرفة الصف كي أتجنب تعريض الأطفال للسلوك الجنسي وتوسلت إليّ مديرتي أن أذعن لهذا الطلب كي لا ألفت انتباه هيئة المدرسة. بالوقت نفسه طالب أحد الزملاء أن يعرف موقفي تجاه الجدل حول التربية الجنسية الذي كان يدور بحدة على المستوى الوطني. إن كل ما كان يهمني في تلك اللحظة، هو إتاحة الفرصة لأطفال روضتي لبناء النظريات عن كيفية دخول الجراء إلى داخل بطن الأم، وإلى أين سيخرجون. أردت من الأطفال أيضًا أن يستخدموا توثيقهم لحجم البطون السابقة كي يتنبؤوا بعدد الجراء التي ستكون في البطن التالي.

ولكن الآن وبحكم أنني أصبحت مدرسة ذات خبرة، فإنني أستطيع شرح أسباب وجود حيوان العَضَلْ في غرفتي الصفية، وأستطيع فعل ذلك بكل ثقة. كان الأطفال يتشاركون شفويًّا وكتابيًّا في النظريات، ويناقشون كيفية نجاح هذه الحادثة المخادعة في الطبيعة، لقد كانوا يلاحظون، ويعدون، ويوثقون، ويتنبؤون، ويختبرون التنبؤات. ولكن بالوقت نفسه لم يكن لدي مقولات مقنعة للكبار.

حين أنظر إلى الخلف أشعر بأنه كان بإمكاني أن أتصرف بصورة مختلفة. لو كنت أكثر تناغمًا مع الجدل السياسيّ والدينّي الذي حدث خارج غرفة صفي؛ لأدركت أن لدى الناس في المجتمع قيمًا ومعتقدات قوية بشأن التناسل.

كان يمكنني أن أتوقع ردود الفعل الممكنة وأكون حينها أكثر احترامًا، وسأقدم المنهاج مسبقًا للعائلات والزملاء والإدارة وربما كنت سأستنفر تركيزي.

لقد تعلمت درسين قاسيين: الأول هو أن القوى القوية خارج جدران غرفة صفنا يمكن أن تحدد قدرتنا على اتخاذ القرار داخل هذه الجدران، أما الدرس الثاني فهو أن علينا فهم أيّ القوى نستطيع التأثير فيها مع أنها تتخطى مجال تأثيرنا. كنت قادرة على أن أجد مأوى لهذا الزوج من حيوانات العَضَل عند العائلات التي رحبت بها، ممن قدرت حب الفضول عند أطفالها ونظرياتهم التي تطورت تدريجيًّا.

كيلي: لا تجعل الشكوك تسيطر عليك

في ذلك الصيف وبالرغم من شعوري بالإحباط وعدم الكفاية، كنت أعرف بأنني لا أريد أن أكون معلمة (المهارة والتدرب) كما تريدني مشرفتي. هل يمكن أن أكون المعلمة التي أردتها ومع ذلك أبقى مؤثرة وأعرف أن الأطفال يتعلمون؟ هل أمكن فعل هذا خارج بيئة المدرسة الريادية؟ هل كان باستطاعتي أن أصبح تلك المدرسة؟ لم يخامرني الشك أبدًا في ما كنت أقدره وما كنت أشعر بأنه الصحيح، لكن تشكك مشرفتي جعلني أشك بقدرتي في أن أكون عند حسن الظن بي، وأن أرقى إلى هذه التوقعات.

حين تكون المخاطر في الطليعة فمن السهل أن يشعر المرء بالفشل. إن الدرس الذي تعلمته يكمن في أنني لا أريد أن يتحكم الخوف في كيفية شعوري تجاه نفسي كمعلمة. لقد أثار ما حدث طوال مدة الصيف مشاعر عدم الكفاية، واحتجت إلى أدوات للتعامل مع هذه المشاعر.

لورا: استمري على هذا المنوال

إنه لمما يكسر القلب أن هذه التجربة أدت بكيلي لأن تشك بقدراتها، وكان يمكن أن تتمخض عن تركها لهذه المهنة، لقد تعلمت أن أقول لنفسي: «إنك تعملين عملًا جيدًا، استمري على هذا المنوال، إنك تسيرين على الطريق الصحيح». أنا ممتنة أيضًا للناصحين المخلصين مثل سينثيا Cynthia التي دعمتني في الأوقات التي كنت فيها أشك في نفسي. إنه لامتياز بالنسبة إليّ أن أكون صوتًا داعمًا لكيلي في تلك الأوقات التي شكت فيها في نفسها.

مواجهة ذئابنا

إذًا هل علينا أن نخشى الذئاب؟ بعد تأملنا في قصصنا قررنا التحول من التفكير بكيفية هزيمتهم إلى كيفية إشراكهم معنا، وتعلمنا أن الاختباء من الذئاب أو تجاهلها أمر غير ممكن وغير حكيم. حين كانت سينثيا مدرسة جديدة في روضة الأطفال قاومت بهدوء، واختارت العمل سرًّا. هذا لم يعد قائمًا، فنحن نراقَب عن كثب لضمان الالتزام بالمناهج المتعاقد عليها، وإيفاء الأطفال جميعهم بمتطلبات معايير الإنجاز وفق برامج مصممة

مسبقًا. حين يتم تقييم مدرسات جدد مثل كيلي ومراقبتهن عن كثب فإن توثيق التدريس الهادف والتأملي والتعلم الهادف والمرح أمر مهم أكثر من أي وقت مضى، ولا ينبغي إخفائه.

إن تحدي الذئاب ومقاومتها العلنية قد ينطوي على مخاطرة، وتجاربنا توضح ذلك. المهم هنا ما نفعله في مواجهة الخوف، تكمن الخطوة الأولى في الإقرار بأن هناك شيئًا يدعو إلى الخوف، وتكمن الخطوة الثانية في تجاوز الخوف، والإدراك بأن هناك شيئًا أكبر في خطر، والأكثر أهمية من ذلك كله هو التزامنا تجاه الأطفال والتدريس الجيد. وفي ما يأتي دروس تعلمناها:

اعرف ما تعرفه وعبّر عنه

- **حول قيمك وأهدافك وافتراضاتك:** لماذا تتخذ موقفًا لتضمين بناء المكعبات واللعب المثير؟ ماذا يكسب الأطفال حين يبنون وينخرطون في لعب الخيال الجامح؟ ما الأمر المهم جدًّا لتطور الأطفال؟ ما دور مدرس روضة الأطفال؟ وأخيرًا ما هي مرتكزات معتقداتنا؟
- **حول المحتوى الذي تدرسه:** حدد الموارد ذات النوعية العالية والتي تدعم فهمك بالأدلة وأبقها في متناول اليد. تساءلت كيلي عما إذا كانت محادثتها مع مشرفتها ستكون مختلفة لو أنها بدأت بالتشارك في أهدافها التعليمية لتدريس الأطفال، وكما عبرت عن ذلك كيلي: «هل يحدث هذا فرقًا لو كانت هذه الأهداف مكتوبة على صورة مسار تعلمي، ولو أنني أظهرت لمشرفتي أن أهدافي كانت أهداف المعايير نفسها؟».

اعرف ذئابك

- تعلم ثقافاتهم ولغتهم وحدد ما المهم بالنسبة إليهم، واستكشف كيف تتناسب أفكارهم مع الصورة الأكبر، واستمع إلى الافتراضات والأهداف والاهتمامات التي تقف خلف كلماتهم.
- علق إصدار الأحكام، وتجنب وضع القضايا في إطار الصحيح أو غير الصحيح. لقد أثرت مجموعة كبيرة من العوامل على قيمنا ومعتقداتنا وصاغتها، وهذا ما ينطبق على الجانبين كلاهما.

- ابحث عن تآلف بين معتقداتك وقيمك وأهدافك ومثيلاتها عند ذئبك، وابدأ بالتركيز على ما هو مشترك بينكما. إن لدى الزملاء والعائلات والمديرين وجهات نظر علينا أن نتفحصها، ويمكن أن تسهم كل مواجهة بشيء في تفكيرنا وطاقاتنا وتدفعنا إلى التصرف بقناعة.

اختر معاركك

- من الضروري أن تحدد بصورة واقعية الناس والقضايا التي يمكن أن تؤثر فيها، وتلك التي لا تستطيع أن تؤثر فيها. اعرف أين يمكنك إحداث التغيير بدلًا من استهلاك طاقاتك وأنت تدافع عن كل قرار، وتجادل في كل نقطة، وتحاول أن تغير كل متحدٍ لك. حالما تعرف ما تريد ساعتئذ يمكنك أن تستجمع الشجاعة، وتجمع الحقائق، وتنخرط في حوار نشط. أحيانًا يبدو الخيار الأفضل في البحث عن عمل في بيئة أكثر دعمًا لك.

اسعَ إلى الحصول على الدعم والحلفاء

- لا نستطيع عمل ذلك وحدنا، ففي المواقف كلها كان الناس الذين نثق بهم ونحترمهم يساعدوننا في إيجاد القوة والشجاعة على متابعة عملنا. لقد غيرت تجربة كيلي الصفية طريقة شعورها تجاه نفسها كمعلمة جديدة، وساعد التأمل والتفكير عند لورا في خضم هذه الأحداث على التحكم بمشاعرها. لقد تفحصتا سويًّا تعقيدات الموقف. كانت كيلي قادرة على دراسة إمكانات أخرى والنظر إلى الموقف كما هو عليه وليس كما صورته مخاوفها.
- كان أكثر حلفائنا أهمية هم الأشخاص الذين تحدونا أن نتأمل بعمق وبعين ناقدة، ونتفحص نقاطنا الغائبة عن رؤيتنا. لقد ساعدونا في تحديد خطواتنا التالية المحتملة، والأهم من ذلك أنهم ساعدونا لأن نصبح المعلمات اللواتي رغبنا في أن نكون على صورتهن.

في السنة الدراسية التالية كانت كيلي ملتزمة بالقول بكل ثقة في غرفة صفها: «أنا أعرف ما أعرف»، لقد ركزت على اتخاذ قرارات هادفة، والتعبير بصورة فاعلة عن الأسباب التي تقف وراء خياراتها. حين اقترحت مشرفة الرياضيات أن يقوم رؤساء الطاولة بعملية

التنظيف كي تكون هذه العملية فاعلة، بينت كيلي أنها تريد أن يتشارك الأطفال جميعهم في المسؤولية. سمعت مشرفتها موقف كيلي، وفهمته، واقترحت أن تطلب هي إلى رؤساء الطاولة بالتنظيف في منطقة الرياضيات، وتجعل المجموعة بكاملها تنظف في أوقات أخرى من اليوم. هنا سُمعت القيم والأهداف، وأُقرت من الطرفين كليهما.

أدت مواجهة كيلي مع مشرفتها -رغم صعوبتها- إلى تراجعها وتحليل ما حدث، والتفكير بما تعلمته في مرحلتها الجامعية الأولى، وفي أثناء مدة الصيف. لقد جعلتها أيضًا تفكر بتجربتها في الحياة، مثل كيفية تربيتها ومكانها، ومتى وأين كانت تذهب إلى المدرسة، وكيفية تعليمها. أدركت كيلي أن هذه التجارب صاغت ما كانت تؤمن به في التدريس والتعلم، وعن طريق تفحصها لهذه التأثيرات والتأمل فيها أصبحت قادرة على المواءمة بين طريقة تدريسها ومعتقداتها بصورة أفضل، وأن تجد الشجاعة لالتزام مثلها، وأن تدرس بقناعة ومتعة.

تعليقات المحررين

إن الصدام بين ما تعلمته كيلي في دراساتها في المرحلة الجامعية الأولى وبرنامج تدريبها الصيفي تطلب منها أن تشك في قدرتها على أن تكون المدرسة التي تريد. لقد علمها هذا التصادم أن تسعى للحصول على العون من معلِّميها السابقين، وهؤلاء جعلوها تعرف أنهم هم أيضًا مرّوا بحالات من الشك، لقد تعلموا من أخطائهم، وتأهلوا لتقييم الإمكانات بصورة أفضل. تثير كل من كيلي ولورا وسينثيا أسئلة مهمة للمُعلِّمين:

- ما الذي أستطيع إنجازه في بيئة تعلمية محددة في سنة واحدة؟
- ما الذي يمكن أن أتخلى عنه في الوقت الحاضر وأختار بضع سنوات في مسيرة التدريس؟
- أين يمكنني أن أجد الثغرات ونقاط الخلل في سياق ما أؤمن به؟
- كيف يمكنني أن أطور المرونة التي يتطلبها الموقف في الوقت الذي أحافظ فيه على قيمي وأطورها؟

في أثناء مواجهة كيلي لذئابها بدأت بترسيخ ذاتها كمدرسة: أن تعرف ماذا كانت تعرف، وتتفحص القيم التي تعلمتها وهي تكبر، وأن تبين لنفسها الصورة التي أرادت أن تكون عليها كمدرسة.